راث الإنسانية

صورة شابا

لجيمس جويس



الهيئة
المصرية
العامة
للكتاب

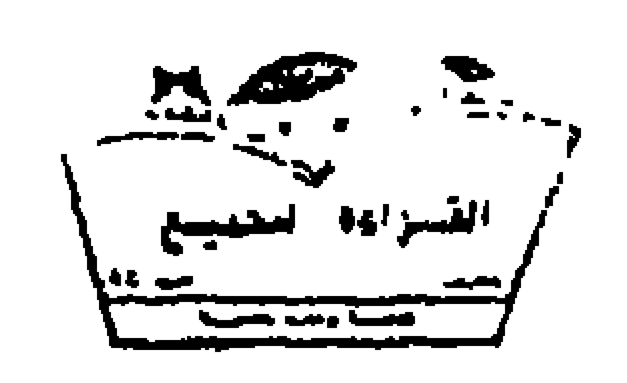
د. أنجيل بطرس سمعان

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٤

صورة شابا

صورة شابا لجيمس جويس

د. أنجيل بطرس سمعان



مهرجان القراءة للجميع ٩٤

مكتبة الأسرة

(تراث الإنسانية)

الجهات المشتركة :

جمعية الرعاية المتكاملة

وزارة الثقافة (هيئة الكتاب)

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الحكم المحلى

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

الانجاز الطباعى والفنى

محمود الهندى

مراد نسيم

أحمد صليحة

المشرف العام

د . سمير سرحان

صورة شابا
لجيمس جويس
د . أنجيل بطرس سمعان

مقـــدمة :

يوصف جيمس جويس عادة بانه أحد صـــناع الأدب الحديث وأحد كبار رجال الأدب فى أوربا ، مثله مثل توماس مان وبروست وجيد وكونراد وغيرهم ممن كان لهم فضل التجديد والابداع • وجويس من أهم الروائيين التجريبيين المجددين فى الأدب الانجليزى الحديث وأحد مؤسسى طريقة تيار الشعور فى كتابة الرواية •

وجويس ايرلندى المولد ، الا أنه ثار منذ شـبابه المبكر على بيئته الاجتماعية والثقافية الضيقــة وقرر ان يخرج عن حدود موطنه الأصلى أيرلندا الى مجال أكثر رحابة وحرية وثراء ليصبح أحد رجـال الأدب الأوربى بوجه عام • ومما يقال أن جويس كان يهتدى بقول ابسن « اننى نرويجى مولدا ولكنى عالمى روحيا » الا أن هذا لا يعنى أن جويس قد تخلص تماما من أيرلنديته • فقد بقى

فى أعماقه أيرلنديا واستمر طوال حياته ينهل من معين حيوية الأرض الأيرلندية ·

ولعل جويس لم يكن الوحيد من بين أدباء العصر الحديث الذين ثاروا على بيئتهم الثقافية والأدبية · فقد شاركه فى ذلك جيل بأكمله من ادباء الجزر البريطانية من أمثال دوروثى ريتشاردسون وفرجينيا وولف و د·هـ· لورنس ممن ثاروا على أدباء الجيل السابق من الروائيين مثل هـ·ج· ولز ، أرنولد بنيت وجون جالزورذى واتهموهم بالتقصير فى تصوير الحياة الانسانية على حقيقتها وبالاغراق فى الاهتمام اما بالقضايا الاجتماعية الوقتية واما بعالم المستقبل واما بتفاصيل الحياة الخارجية ، مهملين حياة الروح والنفس · لقد أحس هذا الجيل الجديد من الروائيين أن هؤلاء الروائيين لم يواجهوا المشاكل التى تحيط بجيل نشأ فى عالم أصابه الكثير من التغير والتحول ، وتأثر الى حد كبير بكتابات علماء النفس وبالأعمال الروائية لعمالقة الروس والفرنسيين ، جيل أحس بحاجة الفرد الى قدر أكبر من الحرية والتخلص من قيود الماضى والحاضر سواء كانت اجتماعية أو سياسية أو دينية ، والى قدر أكبر من العكوف على النفس الانسانية ومحاولة تفهمها ثم تصويرها بأساليب فنية أكثر فاعلية من الأساليب التقليدية القديمة التى لم تعد قادرة على ذلك ·

ومن هنا جاء ذلك الاحساس بضرورة التحـرر من التقاليد الادبيـة المتوارثة والبحث عن أسـاليب روائيـة جديدة · وقد عبرت فرجينيا وولف عن ذلك فى مقالها الشهير عن « الرواية الحديثـة » عنـدما كتبت تقول : « اذا كان الكاتب حرا . وليس عبدا . اذا كان عليه أن يكتبه . اذا كان بوسـعه أن يضـع عمـله على قاعدة من شعوره الخاص وليس على التقاليد المتفق عليها ، فلن تكون هناك حبكة ، ولا ملهاة ، ولا مأساة . ولا قصـة حب ولا كارثة بالمعنى المعروف » (١) · وذلك بالفعل ما حققه جيل فرجينيا وولف وجويس ودورثى ريتشاردسون ممن أطلق عليهم اسم مدرسة تيار الشعور ، فقد حطموا الحبكة التقليدية ، وتجاهلوا النظام المنطقى للأحداث ، واعتمدوا على المنطق الداخـلى ، وتتبعوا الوعى الانسـانى الذى وصفوه بالتيار الذى لا يتوقف ، ووصـلوا بين المـاضى والحاضر، ورأوا الحيـاة الانسـانية كسلسـلة متصـلة الحلقات من الصعب الفصل بين أجزائها أو اخضاعهـا لنظام آلى منطقى · ولقد عبر جويس عمليا عن ثورته برفضه الحياة فى ايرلندا وهربه من الشباك التى تنصبها الأسرة والكنيسـة والوطن فى طريق الفنـان الى حيث يستطيع أن يصور حياة الفرد وما يعانيه من عزلة ووحدة

(١) Virginia Woolf, § Modern Fiction 6, reprinted in *Views on the Art of the Novel*, compiled by Angel B. Samaan (Cairo, 1965), p. 299.

وما يتوق اليه من حرية ، وخاصة أن كان فنانا ، من ناحية ، وباستخدامه للتكنيك الروائى الجديد من ناحية أخرى ٠

ويتمثل فى رواية جويس الأولى « صورة الفنان شابا » ذلك الاهتمام بالنفس أو بالعالم الداخلى ـ عالم الوعى والشعور ، بعد أن ظلت الرواية الانجليزية فترة طويلة تهتم فى المكان الأول بالعلاقات الاجتماعية أو بعلاقة الفرد بالعالم الخارجى وتهمل العالم الباطنى الذى كشف علم النفس فى بداية العصر الحديث عن ثرائه وأهميته للحياة الانسانية بوجه عام ٠

ولما كان سبيل الفنان الى معرفة هذا العالم الداخلى هو معرفته بذاته أولا ثم الغير ، لذا نجد أن جويس ، مثله فى ذلك مثل الكثيرين من أبناء عصره ، قد اتجه فى بادىء الأمر الى تفهم ذاته وتسجيل مشاعره وأحاسيسه وخواطره كما فعل فى قصته المبكرة « ستيفن بطلا » ثم اتخذ من ذلك أساسا فيما بعد لكتابة أعمال أكثر موضوعية تصور حياة الفرد أو الفنان فى العالم الحديث بوجه عام ٠ فنموه ونضج قدرته الفنية ورسوخ قدمه فى عالم الأدب انتقل جويس من المرحلة الذاتية التسجيلية الى المرحلة الموضوعية الفنية القائمة على معرفة عميقة بالذات وادراك واع بأن المشكلة الذاتية ليست فى الواقع الا صورة من المشاكل العامة التى على الفنان

أن يعبر عنها بطريقة موضوعيـة ترفعهـا الى مسـتوى العالمية ومرتبة الفن الرفيع ٠

وتمثل « صورة الفنان شابا » أول عمل حقق فيه جويـس ذلك التوازن المنشــود بين عـالم الذات وبين موضوعية الفن الحقيقى ، ولذا فهى تمثل مرحلة هامة من مراحل تطور جويس الأدبى ٠ وتشغل مكانة متوسطة بين أعماله ، سبقها الى الوجود مجموعة من القصـائد الشعرية الغنائية بعنوان « موسيقى الحجرة » : Chamber Music (١٩٠٧) ثم قصة « ستيفن بطلا » التى يمكن أن تعد سيرة ذاتية فى قالب قصة خيالية ، طورها الكاتب فيما بعد واختصرها وأضاف اليها ، أو بمعنى آخر أعاد كتابتها ، فترك لنا بذلك مثلا رائعا للفرق بين القصة التى هى أقرب الى السيرة الذاتية وبين الرواية الحقيقية التى تعتمد الى حد ما على السيرة الذاتية وحيـاة الكاتب الشخصية ٠ أما فى الفترة التالية « لصورة الفنـان » فقد كتب جويس « يوليس » (١٩٢٢) التى تعد صورة أكمل وأعمق لحياة الفرد فى العصر الحديث ، ويذهب البعض الى وصفها بملحمة العصر الحديث ، والملحمة أبعد ما تكون عن الكتابة الذاتية ، تليها « فنيجانز ويك » (١٩٣٩) وقد وصفت بأنها تاريخ البشرية بأكملها ٠ وهكذا نرى بوضـوح ذلك الانتقـال التدريجى الطبيعى من المرحـلة الغنائية الذاتية الى ما يمكن أن يوصف بالمرحلة الملحمية

الرمزية ، أو كما يرى النقاد من المرحلة الرومانسية الى المرحلة الكلاسيكية ٠

فمن أهم صفات « صورة الفنان » اذن أنها جمعت بين خواص المرحلتين وحققت نوعا من التوازن بينهما ٠ ومن صفاتها أيضا أنها نظرا لموقعها الزمنى المتوسط بين أعمال جويس وفى بداية فترة نضجه الفنى قد نجت من صفات الصعوبة والغموض الذى اتصفت به أعماله المتأخرة ، والذى جاءت نتيجة لاصراره على استخدام جميع امكانيات أسلوب تيار الشعور من ناحية وامكانيات اللغة من ناحية أخرى ، فأصبحت « يوليس » و « فنيجانز ويك » بذلك أعمالا تكاد تكون مستعصية على الفهم الا للدارس أو الباحث الذى كثيرا ما يجد نفسه أيضا مضطرا الى الاستعانة « بدليل » أو « مفتاح » يعينه على فهم ما استعصى عليه فهمه منها ٠ أما أن يقرأهما حتى القارىء المثقف للاستمتاع ودون مشقة فأمر مشكوك فيه ، ولذا فانا نرى أن « صورة الفنان » التى يستطيع القارىء أن يستمتع بها دون كبير عناء ، بالرغم من جدتها وثرائها وتركيزها الشديد ، جديرة بقدر من الاهتمام أكبر مما حظيت به حتى الآن ٠

حياة جيمس جويس ٠

ولد جيمس أوغسطين ألولسيوس جويس ، الابن الأكبر لجون ستانيلاوس جويس ومارى آن مرى بمدينة

دبلن فى ٢ فبراير ١٨٨٢ ٠ وكان حسن المنظر رقيق البنية ، يتمتع بذكاء نفاذ ، وصوت عميق جميل كاد يجعل منه مغنيا محترفا ٠

تلقى دراسته على يد الآباء اليسوعيين فى مدرسة كلونجويس ثم فى كلية بلفيدير ثم أتم تعليمه بالجامعة الكاثوليكية بدبلن التى كانت لفترة قصيرة مركزا للتراث الأدبى الكاثوليكى فقد أسسها الكاردينال نيومان وكان الشاعر جيرالد مانلى هوبكنز أستاذا للغة اللاتينية بها)٠ ولم يكن جويس طالبا مثاليا ٠ ولكنه كان شديد الاهتمام بمواد معينة مثل الفلسفة واللغات الحية التى تعلم منها عددا أثار اهتمامه بالآداب الأوربية المعاصرة وسهل عليه مهمة قراءتها ودراستها ٠ تخرج فى الجامعة فى ١٩٠٢ وسرعان ما قرر ترك دبلن والهجرة الى باريس ٠ وهناك هجر فكرة دراسة الطب وبعد تفكير طويل أخذ فى اعداد نفسه لمستقبل أدبى ٠

نشأ جويس فى بيئة متوسطة رقيقة الحال ٠ وكان لاسراف الأب وميله للشراب أثر واضح فيما قاسته الأسرة من حاجة واضطراب مالى ، ينعكس فى « صورة الفنان » فى ذلك التنقل المستمر من بيت الى آخر ، وفى جو الفقر والقبح الذى كان يحيط بمنزل الأسرة ٠ أما الأب فقد كان كما يصوره جويس « طالب طب ، يحب التجديف صاحب صوت « تينور » ، ممثلا هاويا ، سياسيا جهورى الصوت ،

من صغار الملاك ، من صغار المستثمرين ، يحب الخمر ، شخصا طيبا ، وفى الوقت الحالى يقوم بتمجيد ماضيه ، قصاصا ، أمين سر لشخص ما ، يؤدى عملا فى مصنع تقطير ، جامع ضرائب ، مفلسا » (٢) أما أمه فكانت متدينة ، متمسكة تمسكا شديدا بأمور الدين ، مما أدى الى نوع من الفرقعة بينها وبين ابنها جيمس عندما اخذ نتيجة لشكوكه الدينية في الامتناع عن الذهاب الى الكنيسة ومراعاة المراسيم الدينية ، وأصر على موقفه بالرغم مما سببه لها ذلك من حزن وألم ٠

ونتيجة لهذه العوامل البيئية أخـذ هـذا الشـاب المرهف الحس فى بناء سور من العزلة يقى به ذاته من الاحتكاك بعوامل تلك البيئة من أسرة وكنيسة ووطن ٠ فكما كان جويس غريبا فى أسرته فقد كان غريبا أيضـا بين رفاقه وزملائه فى الجامعة ، ممتنعا عن المشاركة فى الحركة الوطنية أو احياء اللغة الأيرلندية ، كما هو الحال مع ستيفن بطل « صورة الفنان شابا » ٠ ولذا كان تركه لايرلندا بحثا عن الحياة والفن أمرا طبيعيا وهكذا قضى جويس حياته باستثناء فترتين قصيرتين عاد فيهما الى دبلن ، متنقلا بين بلدان أوربا ، فقضى فترات من الزمن في كل من باريس وتريستا وروما وزيوريخ ٠ أما عودته

---

(٢) See *Portrait of the "Artist as a Young Man* (Penguin, 1963).

الأولى الى دبلن فكانت بعد فترة وجيزة من تركه لها حين بلغه نبأ مرض أمه فسارع بالعودة ليكون بجوار فراش موتها • ثم بقى فترة كانت صعبة غير مستقرة ، عمل أثناءها معلما بمدرسة بالقرب من دبلن • ثم ما لبث أن ترك ايرلندا بصحبة نورا بارتاكل التى أصبحت زوجته فيما بعد •

استقر جويس فى أوربا ووعدا باخراج عمل كبير بعد عشر سنوات وقضى هذه السنوات العشر فى مدينة تريستا بايطاليا حيث عمل مدرسا للغات فى مدرسة برليتس ثم كاتبا فى أحد بنوك روما وذلك ليتمكن من سد حاجات أسرته المتزايدة •

أما جهده الحقيقى فقد كرسه لعمله الأدبى الذى شغل معظم حياته ووقته ، وذلك بالرغم مما لاقاه من النقاد من اعراض وتجريح ، وما صادفه من صعوبات فى سبيل نشر أعماله نتيجة لقوانين الرقابة الصارمة التى تمنع صدور أعمال منافية للأداب كما كان يوصف كل عمل يتعرض للجنس مهما كانت جذيته وصفاته الفنية ، كما حدث عند نشر أعمال د•هـ• لورنس وغيره من الكتاب فى ذلك الوقت • ومن المعروف أن جويس لم يتمكن من نشر أى عمل من أعماله دون جهد ومشقة • كتب ليفين يقول « اذا ما قبل الناشر (عملا من أعماله) رفضته المطابع • واذا ما نشره الناشر دمرته الرقابة • واذا لم تكن التهمة

الموجهة اليه تهمة الخروج على الآداب كانت تهمة الكفر . واذا لم تكن الكفر كانت الخيانة الوطنية . وعندما كانت أعماله تمنع من النشر فى ايرلندا كانت تنشر فى انجلترا ، وعندما كانت تصادر فى انجلترا كانت تنشر فى أمريكا ، وفى نهاية الأمر كانت تمنع فى أمريكا أيضا » (٣) . وحتى بعد أن أصبح جويس كاتبا معترفا به كأحد كبار كتاب النثر الانجليزى ، استمرت كتبه لا تقرأ فى البلاد المتحدثة بالانجليزية ، بل وممنوعة بحكم القانون .

قام جويس فى سنة ١٩١٢ بزيارة أيرلندا للمرة الأخيرة فى محاولة فاشلة لنشر مجموعة قصصه « أهل دبلن The Dubliners » ، ولكن عندما ألغى اخوان مونسيل ناشروا النهضة الأيرلندية العقد المبرم بينه وبينهم لنشر الكتاب وأحرقوا صفحاته ، قرر جويس الا يعود الى أيرلندا مهما كان الأمر .

وكانت سنة ١٩١٤ ، وهى السنة العاشرة لذهابه الى المنفى ، سنة ذهبية فى تاريخه الأدبى . ففيها نشرت مجموعة القصص هذه ، وأتم كتابة روايته الأولى « صورة الفنان شابا » ، وبدأ كتابة روايته الثانية « يوليس » . وفى هذه السنة بدأت الحرب العالمية الأولى وبقى جويس فى النمسا . ونتيجة لموقف الحياد الذى

---

(٣) Harry Levin, *James Loyce JSecond Edition,* 1960), p. 26.

اتخذه ، كان جويس بعيدا عن أحداث الحرب عاكفا على أعماله · وكانت الحكومة الانجليزية قد منحته مكافأة مالية صغيرة ساعدته على تحمل بعض أعبائه · وكون جويس فرقة مسرحية صغيرة مساهمة منه فى خدمة الثقافة ولكنها لم تستمر طويلا ·

وعند نهاية الحرب انتقلت أسرته الى باريس ، وهنا فى مدينة النور كما تسمى باريس ، أتم جويس « يوليس » ، أهم أعماله ، ونشرها فى سنة ١٩٢٢ فى عيد ميلاده الأربعين ·

يقول أحد النقاد أن نشر هذه الرواية كان حدثا أدبيا هاما لم يكن له مثيل منذ ظهرت مسرحيات ابسن ، من حيث ردود الفعل التى أحدثها أو النتائج البعيدة المدى التى نتجت عنه (٤) · وكان نجاح الكتاب فى بادىء الأمر نجاحا قائما على الفضيحة التى أثارها Scandale Succès de كما يقول الفرنسيون ، فقد أثار تناول جويس للجنس والرغبات الجنسية الدفينة واشاراته المكشوفة الى الموضوع حفيظة الملتزمين من النقاد ، مما كان حافزا لتهافت القراء على الكتاب كما هو مألوف · الا أن القيمة الحقيقية للكتاب ما لبثت أن ظهرت بينة للقارىء الجاد ولقيت الرواية ما تستحقه من نجاح بين صفوف

(٤) المرجع السابق ، ص ٢٨ـ٢٩ ·

المثقفين والدارسين • أما النجاح الذى يعتمد على الرواج الشعبى فذلك مالم يهتم به جويس قط •

فبالرغم مما بذل من جهود لحماية الشباب من أثر هذا الكتاب الضار ، كما ادعى أدعياء حماية الأخلاق ، فقد نشأ جيل بأكمله من الكتاب الانجـليز والأمريكيين متأثرا به • كما جاء جويس التقدير من بلاد أخرى عديدة فى شكل ترجمات متعددة •

وفى هذه الأثناء وفر له سخاء أحد المعجبين بعمله حياة هادئة بعيدة عن المشاكل المالية ، مما مكنــه من الاستمرار فى عمله حتى أتم تجربة أدبيـة أخـرى هى « فينيجانز ويك » • التى نشرت فى ١٩٣٩ • وبسقوط الجمهورية الفرنسية الثالثة فى ١٩٤٠ أضطر جويس الى ترك باريس والعودة الى زيوريخ حيث توفى فى ١٣ يناير ١٩٤١ أثر عمليـة فى الأمعـاء ، مخلفـا وراءه عـددا من الأعمال الكبرى التى تشهد بفن أديب ثائر محدد •

أعمــاله :

وهكذا يمكن تقسيم حياته الأدبية الى ثلاثة أجزاء : الجزء الأول ويشمل الفترة الأولى من حياته وتصـوره « صورة الفنان شابا » ، وقد نشر فيه مجموعة قصائد « موسيقى الحجرة » • أما الجزء الثانى فيشمل الفترة المتوسطة التى تتكون من حقبتين كرسهما للخلق وقضاهما

فى النمسا وسويسرا ، وتنتهى بظهور « يوليس » • أما الجزء الثالث فقد قضاه فى فرنسا وأنتج فيه « فينيجانس ويك » • وبتتبع تطور أسلوب جويس نجد أنه كان يتقدم نحو أعمال تتميز بمستوى ضخم ونسيج معقد وتدل على مدى تطور الفنان ونضجه •

أما مجموعة « موسيقى الحجرة » فيرى النقاد أنها لا تتميز كثيرا عن أية قصائد يكتبها شاب لا يتمتع بملكة شعرية فائقة ولم ينضج بعد • كتب جويس بعد نشرها بفترة من الزمن يقول أنه كتبها على سبيل الاحتجاج على نفسه • (٥)

أما « ستيفن بطلا » فتمثل أيضا مرحلة مبكرة من مراحل نموه الفنى • وليس أدل على حاسة جويس الأدبية من أنه اخضعها لعملية طويلة من التنقيح والاختصار والتركيز ، أو بمعنى أصح أعاد كتابتها وتشكيلها فى « صورة الفنان شابا » قبل أن يحاول نشرها • وسنعود الى ذكرها عند تناول هذا العمل الأخير بشىء من التفصيل •

أما « يوليس » فتصور أربعة وعشرين ساعة فى حياة حفنة من الأشخاص فى دبلن ، ولكنها تصور فى نفس الوقت الحياة فى العالم الحديث وخاصة حياة

(٥) S.L. Goldberg, *Joyce* (1962), p. 14.

الفنان وعلاقته بهذا العالم ، وارتباطها بقصة يوليس بطل « الأوديسيا » ارتباط مقصود يضيف اليها بعدا آخر ويسهم فى رفعها الى المستوى الملحمى الرمزى • ويمكن القول بأن الرواية تواصل تقديم قصة ستيفن التى بدأت فى « صورة الفنان » من ناحية وتقدم تشكيلا حديثا « للأوديسا » من ناحية أخرى • ولكنها على أى حال عمل ضخم من الصعب الحديث عنه بالايجاز الذى يستلزمه هذا المقال ، فقد كتبت عنه مجلدات بأكملها وظهر له أكثر من دليل ونصيحتنا للقارىء أن يرجع الى واحد منها ان أراد (٦) •

أما « فينيجانز ويك » فتكاد تكون سرا مغلقا على غير الدارس المتخصص كما أشرنا من قبل • وقد وصفت بأنها كتاب دائرى صفاته الغموض وعدم الوضوح الذى يكاد يكون متعمدا ، ويرجع الى حد كبير الى عدم قدرة القارىء على تحديد موضوع الكتاب ، وهل هو شخصية هـ•س• ايرويكر الشخصية الخيالية أم شخصية جيمس جويس ذاته أم أن ايرويكر يمثل كل انسان • أما أحداث الكتاب فتقع فى عالم اختلط فيه الماضى والحاضر والمستقبل ، فتشمل التاريخ كله • أما اللغة التى تنقل كل

---

(٦) أنظر مثلا :
Stuart Gilbert, *James Joyce's Ulysses* (1930), Frank Budgen, *James Jouce and the Making of Ulysses* (1934).

هذا فخليط من اللغة الانجليزية ولغات أخرى عديدة ، وتحمل الكلمات أكثر من معنى ، ويغرق جويس فى استخدام التورية واللعب بالألفاظ · والمقصود بالطبع هو اثراء المعنى ، ولكن السؤال الذى يتبادر الى الأذهان هو : هل يتحقق ذلك فعلا ؟ فمما لا شك فيه أن هذا لابد أن يصيب القارىء بالدوار واليأس · اذ كثيرا ما يبدو أن الكلمات تصبح هامة فى ذاتها وأن العالم الذى يقدمه جويس يصبح عالما للكلمات فيه كما يقول آرنولد كتيل « معنى غامض » ، ويبدو وكأن الكلمات تصبح الشيء الوحيد الحقيقى به ·

صورة الفنان شابا

بدأ جويس كتابتها فى عام ١٩٠٧ واستمر فى مراجعتها واعادة كتابتها حتى ١٩١٤ حيث أتمها فى تريستا ونشرت فى ١٩١٦ · واذا قورنت بالعمل الذى بنيت عليه وهو « ستيفن بطلا » نجد أن الفرق بين العملين يتلخص فى ثلاث نقاط أساسية ، أولها أن جويس قد ركز الأضواء فى الكتاب الثانى على شخصية البطل بحيث بدت بقية الشخصيات أقل وضوحا ، بل أن بعضها لا يذكر حتى بالاسم · أما النقطة الثانية فهى أن جويس قد ركز اهتمامه هنا على الناحية النفسية والعقلية متنقلا من العالم الخارجى الى داخل البطل ، ثم قد ركز أخيرا على العلاقة بين الفن والحياة ·

والرواية كما صاغها جويس نهائيا ، مجلد فى حوالى ثلاثمائة صفحة تقريبا ، وتدور فى بناء متسق مترابط حول ثلاث قمم درامية تمثل نقط تحول وتطور فى شباب ستيفن ديدالوس • وينقسم الكتاب الى خمس فصول تصور المراحل المختلفة التى يمر بها هذا الشاب في بحثه عن ذاته وعن هدفه فى الحياة حتى يدرك أن الفن هو سبيله الى الحياة وتحقيق الذات وأنه أمله ورسالته ودينه • وتتخذ الرواية شكل السيرة الذاتية ، وتعتمد الى حد ما على التتابع الزمنى ، ولكن ذلك فى الواقع لا يشكل الا الهيكل الذى تركب عليه طبقات من المعانى والاشارات والدلالات ، من الأحاسيس والمخاوف والأحلام والآمال • فتجسد تطور وعى هذا الشاب وتتبع تعرفه على الحياة عن طريق علاقاته مع الغير ومع البيئة المحيطة به ، وذلك عن طريق اختيار التجارب أو بالأحرى لحظات من التجارب المفعمة بالمعنى والأهمية وتنظيمها فى تشكيلات تربط بينها وتظهر معناها بحيث تضيف كل الى الأخرى والى النسيج الكلى للرواية ، وتكشف فى النهاية عن عملية نمو أو تطور هى فى الواقع موضوع الرواية •

ولهذا فان شخصية البطل أو صورة « وعيه » على وجه التحديد هى التى تشغل مقدمة الرواية بينما تتراجع الشخصيات الأخرى الى الخلفية حيث ترجع أهميتها الى مدى ارتباطها بالبطل واسهامها فى الكشف عن نموه

وتطوره ٠ وقد ذهب بعض النقاد الى القول بأن « وعى » ستيفن هو الشخصية الرئيسية فى الرواية ٠

أما أحداث الرواية فمعظمها على المستوى النفسى أو الذهنى ، بمعنى أن الأحداث الهامة حتى ما يحدث منها على مستوى العالم الخارجى ، انما ترجع أهميتها الى ما تتركه فى نفس البطل من آثار تلعب دورها فى تشكيل وعيه أو شخصيته ٠

وتعتمد الصورة التى تقدمهـا الرواية لنمو وعى الفنان على استخدام الأسلوب والرمز والبناء ، بهـدف الوصول الى شكل درامى واضـح ٠ وترى الأحـداث ، خارجية كانت أم داخلية ، فى اللحظة الحية ، كما ترى متصلة بغيرها نتيجة لاستخدام وسائل الربط المختلفة من تداع للمعـانى الى صـور متصـلة متـكررة الى رموز أساسية ، وقد ألغيت الفواصل بين الماضى والحاضر بحيث أصبح الماضى عاملا فعـالا فى الحاضر ، وجاء الحاضر نتيجة للماضى ٠

من أهم جوانب هذه الصورة أيضا ، موقف المؤلف من مادته ٠ فقد كان على جويس أن يحقق ذلك الأدراك المستقل اللازم للفنان الدرامى ٠ فهو يصور ذاته وتجربته الذاتية ، لذا كان لزاما عليه أن يحقق التوازن بين تعاطفه مع بطله (الذى هو نفسه) واحتفاظه لنفسه بالاستقلال

الذى يسمح له بالحكم على ذلك البطل ، بحيث لا يغرق فى التعاطف ولا يسرف فى النقد • وقد بلغت درجة الموضوعية التى حققها جويس حدا مكنه من أن « يقدم صورة للذات ولكنها صورة لذات مر بها وانتهى من أمرها الى حد كبير » (٧) •

يقول جولدبرج أن جويس قد وجد ذاته ككاتب وفنان بكتابة « صورة الفنان » وفى اعادة خلقه للعملية التى أصبح بها ذاته الحاضرة ، وأكد أيضا نضجه الفنى الذى كانت هذه العملية ـ كما رأى فيما بعد ـ تسعى نحوه بطريقة غامضة ومستمرة • (٨) فمن الواضح أن النتيجة كانت عملا أصعب بكثير من « ستيفن بطلا » وأكثر روعة وتركيبا •

وبالنظر الى الصورة التى يقدمها جويس ، نجد نظاما نمطيا للنمو الخلقى والعزلة الاجتماعية ـ وهو نظام مألوف فى المجتمعات الأوربية منذ الرومانسية على الأقل ، اذ ينمو وعى الفرد فى بيئة اجتماعية معينة ويتشكل الى حد ما نتيجة للضغوط التى تمارسها هذه البيئة • الا أن الفرد أثناء عملية النمو كثيرا ما يجد بشكل متزايد أن هذه البيئة لا تلائمه وتحد من حريته

(٧) S.L. Goldberg, *Joyce*, p. 49.

(٨) المرجع السابق ، ص ٤٧ •

وتطوره ، يجد قصورا فى هذه البيئة التى لا تقدم له الغذاء الروحى أو العاطفى ولا توفر له الثقافة التى يمكن استغلالها ، ولكنه فى نفس الوقت يجد نفسه غير قادر على مقاومتها تماما أو تغييرها بسهولة أما اذا كان الفرد فنانا فستكون المشكلة أكثر حدة نتيجة لدرجة أكبر من الحساسية ، فيجد نفسه فى النهاية مضطرا الى الانعزال عن مجتمعه ، ثائرا عليه ، شهيدا لحبه له • فقد اتخذ جويس من الفن وعلاقته بالحياة ، أو بمعنى أصح من الفنان وعلاقته بالعالم المحيط به ، موضوعا لأدبه • وسرعان ما أدرك أن الفنان بطبيعة عمله واحساسه ووعيه ورغبته الملحة فى تغيير الأمور ، يكون معزولا عن قومه وبنى جلدته ، غريبا فى وطنه • وهكذا أصبحت تلك العزلة وما يتبعها من اغتراب ونفى أحيانا جزءا من موضوعه • ومما يقال أن جويس ما كاد يكتب عن ذاته حتى وجد « أنه لا يمكن أن يشكل عمله كما يشاء الا اذا تبعت حياته نظام مسلماته الجمالية • وهكذا أصبح المنفى الكامل ضرورة فنية وشخصية •

ولكن جويس أدرك أيضا بفهمه للحياة الانسانية أن الفنان لا يمكن أن يكون فنانا حقيقيا اذا عاش بعزلة تامة عن غيره من الناس • وهكذا كان ذلك الصراع المستمر بين الرغبة فى العزلة والاستقلال وبين الرغبة فى الانتماء والارتباط بقوم ووطن ، وذلك الشعور بالأسى الذى لم يفارقه

قط لاضطراره للعيش بعيدا عن أهله وعدم اعتراف هؤلاء – من جانبهم – به وبعمله ورغبته فى خدمتهم وتنويرهم ·

وفى « صورة الفنان شابا » اختار » جويس لبطله أسماء ذات دلالات رمزية تجمع بين المعانى المتضمنة فى شخصيته ، شخصية الفنان الثائر الشهير الناجح · فديدالوس الفنان المعمارى البارع الذى شيد قصرا للتيه ، عندما ألقى به فى السجن نتيجة لحسد حساده ، صنع أجنحة من ريش الطيور وحقق حلم الانسان فى الطيران · وستيفن أول شهيد مسيحى استشهد فى سبيل ايمانه ورسالته ·

ويعالج كل فصل من فصول الكتاب احدى مشكلات ستيفن الكبرى ، ويمثل مرحلة من مراحل نموه تتخللها أزمة تنتهى الى حل أو نوع من الانتصار أو تحقيق الهدف ، ولكن سرعان ما يبدو أن النصر ليس نهائيا وأن الهدف ما زال بعيدا مجهولا · ويذهب هيوكينر Hugh Kenner الى أن « كل فصل يجمع الموضوعات الرئيسية فى الفصول السابقة ويوحد بينها وبين موضوع خاص به وينتهى بنوع من المركب Synthesis الناجح الذى يحطمه الفصل التالى » · ويضيف جولدبرج معلقا « أن هذا لا يمثل الا جانبا واحدا من الحقيقة ، لأن كل فصل يصور تحقيق انجاز ايجابى ، اذ تتحقق احدى امكانيات حياة ستيفن الأساسية · فموضوع الكتاب هو

النمو · » (٩) ولعل حقيقة الأمر هى أن ستيفن يحقق فى كل مرحلة درجة من النصر باكتشاف بعض امكانياته وامكانيات الحياة الخلقية أو العاطفية بوجه عام ، ولكنه نصر جزئى لا يمثل الحقيقة النهائية (عن نفسه وعن العالم) التى يسعى الى ادراكها ·

يصور الفصلان الأول والثانى مثلا عالم الصبى وهو بصدد اكتشاف ذاته فى هذا العالم (عالم الأسرة والمدرسة) · وبدقة ورقة بالغتين يمسك جويس بدوافع الطفل وبيئته المحيرة والمخيفة أحيانا ، مبينا الهوة التى تفصل بينه وبين عالمه · وتتكون قيم الطفل تدريجيا نتيجة لتجربته واحتكاكه بالحياة وعلاقته بالآخرين · ويكشف لنا جويس عما يعتور نفس الصبى من مخاوف وآمال وأحلام تكون المادة الأولية التى تشكل منها أفكاره ومعتقداته ومبادئه فيما بعد · ويستخدم جويس جميع الوسائل الفنية الممكنة لتجسيد هذه المرحلة من حياة الطفل · يبدأ الكتاب ببضعة شذرات من ذكريات طفولة ستيفن :

« كان يا ما كان ، كان ذلك زمانا طيبا · كانت هناك بقرة خوارة تنحدر على طول الطريق · والتقت هذه البقرة الخوارة وهى تنحدر على طول الطريق بطفل صغير لطيف اسمه الطفل توكو ·

---

(٩) انظر المرجع السابق ، ص ٥٣

حكى له والده تلك القصة : نظر اليه والده خلال كوب : كان له وجه غزير الشعر ٠

كان هو الطفل توكو ٠ انحدرت البقرة الخوارة على الطريق حيث تقطن بيتى بيرن Betty Berne كانت تبيع زهور الليمون

« آه ، زهور الورد البرية

فى المكان الصغير المخضر

كان يغنى تلك الأغنية ٠ تلك كانت أغنية ٠

عندما تبلل الفراش يكون الفراش دافئا ثم يصبح باردا ٠ وضعت أمه المشمع ذا الرائحة الغريبة ٠

كانت لأمه رائحة ألطف من رائحة أبيــه ٠ كانت تعــزف له على البيــانو رقصــة البحــارة ليرقص ٠ كان يرقص ٠

ترالالا لالا ،

ترالالا ترالالادى ،

ترالالا لالا ،

ترالالا لالا ،

وصفق له العم تشارلز ودانتى ٠ كانا أكبر سنا من أبيه وأمه ولكن العم تشارلز كان أكبر سنا من دانتى ٠

كان لدى دانتى فرشتان ٠ كانت الفرشــاه ذات

القطيفة البنيــة لما يكل دافيت والفرشـــاه ذات القطيفــة الخضراء لبارنيل • وكانت دانتى تعطيه قطعة من الحلى كل مرة يحضر لها فيها قطعة من ورق التجفيف •

كان آل فين يسكنون رقم ٧ • كان لهم أب وأم مختلفان • كانا أب وأم أيلين • عندما يكبران سيتزوج أيلين • اختبأ تحت المنضدة • قالت أمه :

ــ أوه ، سيعتذر ستيفن •

وقالت دانتى :

ــ أوه ، اذا لم يعتذر ستأتى النسور لتفقأ عينيه
تفقأ عينيه ،
يعتذر ،
يعتذر ،
تفقأ عينيه •
يعتذر ،
تفقأ عينيه ،
تفقأ عينيه ،
يعتذر » (١٠) •

وهكذا نجد اشارات الى علاقة الأب بالأبن وعلاقة

(١٠) « صورة الفنان شابا (طبعة بنجوين ، ١٩٦٣) ، ص ٧ •

الابن بالأم والى دانتى وتفريقها فى المعاملة بين دافيت وبارنيل ، ثم خوف من أشد مخاوف الطفولة وهو بلل الفراش ثم العقاب المرتبط بالذنب وعدم الاعتذار • ويستخدم جويس أسلوب تفكير الطفل وطريقة تعبيره واللغة المرتبطة بهذا التفكير بمهارة وقدرة فائقتين •

ثم ننتقل الى حياة المدرسة ونعود من وقت لآخر الى الأسرة وتعاليم الأبوين للابن الذى يفارقهما للذهاب الى المدرسة • وفى المدرسة يواجه ستيفن عالما جديدا يتلمس فيه طريقه بحذر ووجل • فنراه تارة فى الملعب وهو الصبى الرقيق ضئيل الجسم فى مباراة للكرة يحاول البقاء على حافة الملعب خوفا من أن تدوسه أرجل الصبية الأكبر منه حجما ، وتارة أخرى فى عنبر النوم يحاول تدفئة فراشه البارد ، وتارة فى عيادة المدرسة بعد أن ألقى به زميل عابث فى بركة من الماء الراكد القذر • لماذا يفعل ذلك ؟ هل هذا عدل ؟ هذا زميل شرير • ولكن هناك زملاء طيبون •

هذه مثلا لحظة بين لحظات مباراة للكرة :

« كان الملعب يعج بالصبية • وكان الجميع يصرخون والعرفاء من الطلبة يشجعونهم بصرخات قوية • كان جو الأمسية شاحبا تشوبه البرودة • وبعد كل هجمة وركلة للاعبى الكرة كانت الكرة الجلدية الدهنية تطير كالطير الثقيل خلال الضوء الرمادى • ظل على حافة

الملعب ، بعيدا عن عينى العريف ، بعيدا عن متناول الأرجل الخشنة . متظاهرا بالجرى بين الحين والحين · كان يشعر بجسمه ضئيلا ضعيفا وسط جمع اللاعبين وعينيه ضعيفتا البصر مدمعتين · لم يكن رودى هيكام هكذا : سيكون كابتن الخط الثالث · هكذا يقول الجميع ·

« ان رودى هيكام زميل لطيف أما « ناستى روش فلا يطاق » ·

ويعتمد جويس على تداعى المعانى للربط أحيانا بين الأفكار التى تدور فى ذهن ستيفن :

« كان يزحف من نقطة الى أخرى على حافة الملعب ، ويقوم بجريات صغيرة بين الحين والحين · ولكن يديه كانتا تميلان الى الزرقة من البرد · دس يديه فى الجيوب الجانبية لبزته الرمادية ذات الحزام · التف هذا الحزام حول جيبه · وكلمة حزام تعنى أيضا ضرب زميل بالحزام· قال زميل ذات يوم لكانتويل ·

ـ سأضربك بالحزام فى التو ·

أجاب كانتويل ·

ـ اذهب وقاتل ندا لك · اضرب سيسيل ساندر بالحزام · كم أود أن أراك تفعل ذلك · فسيعطيك شلوتا فى مؤخرتك جزاء لك ·

لم يكن ذلك تعبيرا لطيفا · لقد قالت أمه ألا يحادث

الصبية غير المهذبين فى المدرسة • أم لطيفة ! عندما قالت الى اللقاء أول يوم فى صالة الحصن ، ثنت حجابها على أنفها لتقبيله • وكانت عيناها وأنفها حمراء ، ولكنه تظاهر أنه لا يرى أنها تبكى • كانت أمه لطيفة ولكنها لم تكن لطيفة جدا وهى تبكى » •

ثم هناك تلك اللحظة التى انتابته فيها الحيرة حين سأله زميل اذا كان يقبل أمه قبل النوم • لم يدر ما هى الاجابة الصحيحة :

« جلس فى ركن من حجرة اللعب متظاهرا بمشاهدة مباراة للدومينو وقد استطاع مرة أو مرتين أن يسمع أغنية الغاز لحظة • كان العريف عند الباب مع بعض الأولاد وكان سيمون مونان يعقد أكمامه المستعارة ويقول شيئا عن ثولا بيج • ثم ترك الباب ومضى وجاء ولز الى حيث يجلس ستيفن وقال :

ـ قل لنا يا ديدالوس ، هل تقبل أمك قبل أن تأوى الى الفراش ؟

وأجاب ستيفن •

ـ نعم أفعل ذلك •

واستدار ولز الى بقية الرفاق وقال :

ـ اسمعوا ـ ها هو ذا زميل يقول انه يقبل أمه كل ليلة قبل أن يأوى الى الفراش •

وتوقف بقية الزملاء عن اللعب واستداروا ضاحكين·
واحمر وجه ستيفن تحت نظراتهم وقال :

ـ لا أفعل ·

وقال ولز :

ـ أوه ـ اسمعوا ، ها هو ذا شخص لا يقبل أمه قبل أن يذهب الى الفراش · وضحكوا جميعا مرة أخرى · وحاول ستيفن أن يضحك معهم · أحس بجسده كله ساخنا مرتبكا فى الحال · ما هى الاجابة الصحيحة على هـذا السؤال ؟ · لقد أجاب اجابتين مختلفتين وما زال ولز يضحك منه · ولكن لابد أن يعرف ولز الاجابة الصحيحة لأنه فى الصف الثالث · حاول أن يفكر فى أم ولز ولكنه لم يجرؤ أن يرفع عينيه الى وجه ولز · لم يكن يحب وجه ولز · لقد كان ولز هو الذى دفع به الى الحفـرة المربعة بالأمس لأنه رفض أن يبادل صندوق نشوقه الصغير بكستناءة ولز المجففة القاطعة التى هزمت أربعين · كان ذلك عملا دنيئا · قال ذلك كل الزملاء · وكان الماء باردا وقذرا · وقد رأى فيه مرة فأرا كبيرا يقفز فى القذارة » ·

وكأنمـــا لينسى ذلك كله يتجـه بفـكره الى المنزل والأسرة ، ويذكر عطلة عيد الميلاد التى سيعود أثناءها الى أسرته · ولكنها مازالت بعيدة جدا ·

مازال الصبى مرتبطا بأسرته ملتزمـا بالقيم التى لقنها له والداه · قالت أمـه لا تختـلط بالأولاد الذين

يستخدمون لغة غير مهذبة · وقال أبوه لا تشى بزميل مهما حدث · ولكن سرعان ما يجد نفسه فى موقف يجبره على اختيار مسلك معين خاص به ، فنرى بذلك بداية تكوين شخصية متميزة لها قيمتها الخلقية الخاصة بها ·

وهكذا يصل الفصل الأول الى ذروته الدرامية عندما يذهب ستيفن الى مدير المدرسة شاكيا مشرف الدراسات الذى ضربه دون ذنب جناه ، مخالفا بذلك تعاليم والده · ولكنه يثبت ذاته ويسلك المسلك الذى يتفق مع شخصيته ويدل على ما سيكون عليه فى المستقبل·

ويشكل هذا الموقف حدثا هاما فى حياة ستيفن · اذ نرى هنا الشجاعة الخلقية التى تكون احدى دعائم الفنان الثائر الذى يسعى لأن يقول الحق عن نفسه وعن الحياة · يدخل مشرف الدراسات الأب دولان فصل ستيفن يهدد ويتوعد · وحين يجد تلميذا كسولا راكعا بين الصفوف يعاقبه وينذر بأنه سيعود غدا وبعد غد · ثم يلمح فجأة ستيفن ويلاحظ أنه لا يكتب الدرس مثل زملائه : ·

« ··· أنت يا ولد · من أنت

ويقفز قلب ستيفن فجأة ·

ــ ديدالوس يا سيدى ·

ــ لماذا لا تكتب مثل الآخرين ؟

ــ أنا ·· انى ··

الجم الخوف لسانه ٠

ـ لماذا لا يكتب يا أب آرنول ؟

يقول الأب آرنول : لقد كسر نظارته ، فأعفيته من العمل ٠

فيقول مشرف الدراسات : ـ كسر ؟ ما هـذا الذى أسمعه ؟ ماذا قلت ، ما اسمك ؟

ـ ديدالوس ، يا سيدي ٠

ـ أخرج هنا يا ديدالوس ٠ أيها المتآمر الصـغير الكسول ٠ أن التآمر يرتسم على وجهـك ٠ أين كسرت نظارتك ؟

وتعثر ستيفن الى أن وصل الى منتصف حجـرة الدراسة وقد أعماه الخوف والسرعة ٠

ويعيد مشرف الدراسات السـؤال : ـ أين كسرت نظارتك ؟

ـ فى ممر الرماد يا سيدى ٠

ـ هو هو ! ممر الرماد ! انى أعرف تلك الحيله -

قالها مشرف الدراسات صارخا ٠ رفع ستيفن عينيـه فى عجب ورأى لحظة وجه الأب دولان الأبيض الأشيب الذى زايله الشباب ، ورأسه الصلعـاء البيضاء مع شعيرات قصيرة على الجانبين ، والاطار المعدنى لنظارته وعينيه عديمتى اللون ينظران من خلال نظارته ٠ لماذا قال انه يعرف تلك الحيلة ؟

ثم صرخ مشرف الدراسات : ـ أيها المتسكع الصغير الكسول . كسرت نظارتى ! حيلة قديمة للتلاميذ ! مد يدك حالا !

أقفل ستيفن عينيه ومد فى الهواء يدا مرتعشة ، كفها الى اعلى . أحس بالمشرف يمسها لحظة ليثبت الأصابع المرتعشة ثم صوت كم رداء المشرف والمجلدة ترتفع لتضرب . ضربة ساخنة ملتهبة لاذعة واخذة مثل القرقعة العالية لعصا تتكسر ـ جعلت يده المرتعشة تنكمش مثل ورقة شجر فى النار . ومع الصوت والألم اندفعت الدموع المحرقة الى عينيه . وكان جسده كله يرتعش من الخوف ، وارتعشت ذراعه واهتزت يده الملتهبة الشاحبة المزرقة كورقة شجرة فى الهواء . وقفزت صرخة الى شفتى ستيفن ، رجاء أن يعفى عنه . ولكن بالرغم من أن الدموع كانت تحرق عينيه وأطرافه ترتعد من الألم والخوف ، أمسك الدموع السخينة والصرخة التى أحرقت حنجرته .

وصرخ مشرف الدراسات : ـ اليد الأخرى .

سحب ستيفن ذراعه الأيمن المشوه المرتعش ومد يده اليسرى . وأحدث كم الرداء حفيفا مرة أخرى حين ارتفعت المجلدة لتسقط بصوت عال وهى ترتطم بيده محدثة ألما ملتهبا مفترسا مثيرا للجنون . تنكمش يده ، الكف والأصابع ، فى كتلة مرتعشة شاحبة ، وانفجر الماء الحارق من عينيه وهو يلهث ألما وخجلا وخوفا . سحب ذراعه

المرتعشة فى فزع وانفجر فى بكاء ينم عن الألم · كان جسده يرتعش وقد تشنج من الفزع والخجل والغضب · أحس بالصرخة الحارقة تخرج من حنجرته والدموع الحارقة تسقط من عينيه على وجنتيه الملتهبتين ·

وصرخ مشرف الدراسات : اركع ·

وركع ستيفن بسرعة وهو يضغط يديه المضروبتين الى جنبيه · ان تذكره أنهما مضروبتان متورمتان من الألم يثير فى نفسه الأسى كما لو لم تكونا يديه بل يدى شخص آخر يحس نحوه بالأسى · وبينما كان يركع ، مهدئا نهنهاته الأخيرة ، شاعرا بالألم الوخاز الملتهب يضغط على جنبيه ، كان يفكر فى اليدين اللتين مدهما فى الهواء والراحتين الى أعلى وفى اللمسة القاسية للمشرف عندما ثبت الأصابع المرتعشة وفى كتلة الكف والأصابع المضروبة المتورمة المحمرة التى كانت ترتعش بوهن فى الهواء · (ص ٥٠ ـ ٥١) ·

كان ذلك ظلما وقسوة لأن الطبيب قال له ألا يقرأ دون نظارته · وقد كتب لأبيه ذلك الصباح يطلب نظارة جديدة · وقال له الأب أرنول أنه لا ضرورة لأن يستذكر حتى تصل النظارة الجديدة · ثم أن يدعى متآمرا أمام الفصل ويضرب بينما كان ترتيبه الأول أو الثانى دائما وكان قائد تلاميذ يورك · كيف تسنى لمشرف الدراسات أن يعرف أنها خدعة ؟ أحس لمسة أصابع المشرف وهى تثبت

يده وقد ظن فى بادء الأمر أنه سيصافحه اذ كانت أصابعه رقيقة حازمة • ولكن بعد لحظة سمع خفيف الرداء والضربة • كان قاسيا وظالما اذ جعله يركع وسط حجرة الدراسة • (ص ٥٢) .

كان مشرف الدراسات قسا ولكن ما عمله كان قسوة وظلما • وكان وجهه الكالح وعيناه عديمتا اللون خلف نظارته ذات الاطار المعدنى قاسية لأنه ثبت يده أولا بأصابعه الرقيقة الحازمة ، وكان ذلك كي يضربة أحسن وأشد » • •

ونلاحظ تكرار كلمة « الظلم » • كان الضرب ظلما • ويجىء تعليق الزملاء •

« لقد كان ذلك عملا دنيئا •• أن يضرب ولدا دون ذنب جناه » • ويستمر ستيفن فى التفكير فى الأمر ولكن ذلك لا يغير منه شيئا •

« كان ذلك خطأ ، كان ظلما وقسوة ، وبينما كان يجلس فى المطعم ، قاسى المرة تلو المرة من ذكرى ذلك الاذلال حتى بدأ يتساءل اذا كان فى وجهه حقا ما يجعله يبدو متآمرا ، وتمنى لو كانت معه مرآة ليرى وجهه • ولكن ليس من الممكن أن يكون ذلك صحيحا ، كان قسوة وظلما (ص ٥٣) •

وبعد تردد طويل يصوره جويس صتبويرا رائعـا يقرر أن يذهب الى المدير ويفعل ذلك ويجد منه تفهما لموقفه

ويسمح له بعدم الاستذكار الى أن تصل نظارته الجديدة وينزل ستيفن الى فناء المدرسة ليقابله زملاؤه مقابلة الأبطال • ولكن ستيفن يقرر أن يكون متواضعا مع الأب دولان وألا يظهر له أى كبرياء أو شعور بالانتصار •

وتلاشت الهتافات فى الهواء الرمادى الرقيق • كان وحده • كان سعيدا ، طلقا ، ولكن على أية حال لن يكون متكبرا مع الأب دولان • سيكون هادئا ومطيعا ـ جدا : وتمنى لو يستطيع أن يعمل شيئا لطيفا ليريه أنه ليس متكبرا » •

وينتهى هذا الفصل بنغمة هادئة • لقد حقق ستيفن الطفل أو الصبى عملا هاما بالنسبة له ولنموه ، وأظهر شجاعة خلقية ستبقى معه فى مستقبل حياته كصفة هامة من صفات الفنان •

وفى المرحلة التالية ، نرى الصبى وهو يمر بمرحلة المراهقة برومانسيتها وتطلعاتها وميلها الى الأحلام وحب الجمال والشعر وتجربة الحب • وهنا تتسع الهوة بين الصبى وبيئته المنزلية حيث الفقر والقبح وعدم الاستقرار • فيهرب منها الى قراءة الشعر والقصص والانغماس فى الأحلام ثم أخيرا الى أحضان عاهرة • ويظن ستيفن أنه وجد فى تجربة الحب الجنسى ما كان يبحث عنه ولكن سرعان ما يدرك خطأه • ويتنازعه الشعور بالاثم والرغبة فى مواصلة الاثم •

ويصور جويس الأحداث والجو العام لحياة الأسرة باستخدام الصورة والرمز · فذات يوم مثلا يجد ستيفن أمام الباب عربتى نقل صفراوتين وينزل منهما رجال يدخلون البيت ويجردونه من الأثاث · ويجلس ستيفن فى العربة التى تحمل الأثاث مع أمه وقد احمرت عيناها ·

« وفى البيت الجديد تدخن المدفأة ، ويلقى المصباح ضوءا خافتا ويجلس أفراد الأسرة فى المنزل الذى لم يتم تأثيثه ولم تعط أرضه الأبسطة وقد ترك رجال النقل آثار أقدامهم عليها » (ص ٦٥) ·

ويجدر بنا أن نشير الى أن جويس يحقق فى هذه الصورة درجة عالية من الواقعية نتيجة لحسن اختياره لمثل هذه التفاصيل وما تحمله من معان ودلالات · وبالرغم من هذا الوصف للأحداث الخارجية ، يهتم جويس بما يحدث داخل ستيفن ، فما نراه من الحياة الخارجية ينعكس على ستيفن · وينقل جويس الينا ذلك الاحساس بوصفه الانتقال الى بيت جديد أسوأ من الأول وأقل منه راحة ·

وتبدأ معرفة ستيفن بديلن كانت دبلن احساسا جديدا معقدا · وتبدأ عملية البحث عن الذات التى تستمر طوال الرواية تقريبا · يشعر ستيفن بعدم رضا وعدم استقرار ، ويذرع طرقات دبلن وأرصفة مينائها ذهابا وجيئة كأنه يبحث حقا عن شخص « لا يمكن الامساك به » ·

وبالرغم من الاستعدادات لعيد الميلاد والزينات التى تحلى المحال وخروجه مع أمه الى الأسواق ، لا يفارقه صمته وشعوره بالمرارة :

كانت أسباب مرارته كثيرة ، بعيدة وقريبة كان غاضبا من نفسه لأنه صغير السن ونهب للدوافع الطائشة غير المستقرة ، غاضبا أيضا من التغيرات التى كانت تعيد تشكيل العالم من حوله الى رؤيا من القذارة وعدم الاخلاص · ولكن غضبه لم يغير من هذه الرؤيا · كان يسجل ما يرى بصبر مبتعدا بنفسه عنها بيد أنه كان يتذوق نكهتها المؤلمة سرا » (ص ٦٧) ·

وينتقل ستيفن من كلونجويز الى بلفدير ، وتزداد عزلته عن بقية الزملاء ــ لا يشارك فى المسرحية التى يخرجونها ويكتب مقالا عن الشاعر بايرون يستحق عليه لقب الكافر ، ويرفض الاعتراف بشاعرية تنيسون · ولا تستثيره دعوة زملائه لمشاركتهم فكرتهم عن الشرف كما أصبحت أصوات أبيه ومعلميه التى تستحثه ليكون سيدا مهذبا وكاثوليكيا جوفاء خاوية · كذلك لم تستثره حركة النهضة أو احياء التراث القومى ، تلك الأصوات التى تناديه أن يكون مخلصا لبلده وأن يرفع شأن لغتها وتراثها · كانت هذه الأصوات الجوفاء تستوقفه فى بحثه عن الأشباح · كان يستمع اليها بعض الوقت ولكنه لم يكن يشعر بالسعادة الا وهو بعيد عنها ، أبعد من أن تصل اليه ، وحده فى صحبة زملائه الأشباح · (ص ٨٤)

ويفوز بجائزة مالية فى مسابقة أدبية ، وتوفر له النقود فترة سعادة قصيرة يمارس فيها حبه للسخاء والكرم ، ولكنها سرعان ما تنتهى ويعود الى عذابه وعدم رضاه • وأخيرا يلقى بقلقه فى أحضان عاهرة فى نهاية الفصل الثانى من الكتاب •

ويستمر ستيفن فى البحث عن اشباع رغبته فى هذا النوع من الحب • ولكن « لا مبالاة واضحة باردة تسود روحه » •

« عند خطيئته كان قد شعر بموجة من الحيوية تمر فيه وكان يخشى أن يصيب العجز جسده أو روحه • ولكن بدلا من ذلك حملته الموجة علي صدرها بعيدا عن نفسه ، وعادت به مرة أخرى عندما انحسرت ، ولم يصب أى جزء من جسده أو روحه ولكن سلاما مظلما قد استقر فيها • وكانت الفوضى التى أطفأ فيها حماسة ، معرفة باردة لا مبالية بنفسه لم يخطىء الخطيئة المميتة مرة واحدة بل مرات عديدة وكان يعرف ذلك ، وبينما كان يعرف أنه فى خطر من اللعنة الأبدية من أجل الخطيئة الأولى وحدها ، كان يضاعف بكل خطيئة تالية أثمة وعقابه • ولكن أيامه وأعماله وأفكاره لم تكن كافية للتكفير عن خطيئته ، فنافورة النعمة المقدسة قد توقفت عن انعاش روحه » (ص ١٠٣) •

لم يعد يقوم بواجباته الدينية ، « فما الفائدة من ذلك وروحه تشتهى هلاكها • منعته كبرياؤه من أن يقدم صلاة

واحدة لله رغم أنه يعلم أن فى مقدوره أن يأخذ حياته أثناء نومه ويلقى بروحه فى الجحيم قبل أن يتمكن من طلب الرحمة · »

ولكن يجى الوقت الذى يشعر فيه ستيفن « أن قلبه قد ذبل مثل زهرة الصحراء التى تشعر بريح السموم آتية » · (ص ١٠٨)

ويشغل الفصل الثالث تلك الموعظة الطويلة المخيفة عن الجحيم والعذاب المقيم الذى يجلبه الخطاة على أنفسهم (الموت والدينونة والجحيم) يحدث هذا فى وقت أخذ فيه ستيفن يضيق بحياة الشهوة والاثم التى ينغمس فيها :

« وبينما يسير الى المنزل مع رفاقه صامتين . بدا وكان ضبابا كثيفا يحيط بعقله ··· كانت روحه تسمن وتتجمد فى دهن قذر وهى تغوص أعمق وأعمق فى خوفها البليد ، فى غسق مظلم بينما يقف الجسد الذى كان له ، دون مبالاة ، ذليلا · يحملق من عينين مظلمتين خائرتين فانيتين بحثا عن اله بليد كالثور · (ص ١١٢) ·

وتستمر الموعظة ويشعر ستيفن أن اليوم الأخير قد حل · وأن يوم الدينونة قد اقترب · « كانت نجوم السماء تتساقط على الأرض مثل ثمار التين التى تلقى بها شجرة تين تهزها الريح » (ص ١١٣) وكان ستيفن يشعر أن كل كلمة موجهة اليه هو بالذات ـ هو الخاطىء الأثيم ·

وأخيرا وبعد عذاب طويل وتردد يذهب الى الكنيسة ويعترف للقس . كان يشعر وكأن العار يغطيه كله مثل الرماد الناعم الذى يتساقط باستمرار لمجرد فكرة الاعتراف بخطاياه ولكنه يعترف . ويشعر بصوت القس العجوز المتعب فى نهاية الاعتراف كالمطر الحلو على قلبه الجاف المرتعش . وعندما يركع فى النهاية للصلاة « تصعد صلاواته للسماء من قلب مطهر مثل الرائحة التى تتدفق الى أعلى من قلب وردة بيضاء . (ص ١٤٥) « ويبدو كأن أمامه حياة جديدة — حياة النعمة والفضيلة والسعادة . وأن ذلك حقيقة وليس حلما » (ص ١٤٧) .

ومع بداية الفصل الرابع تساوره الشكوك فى تطهره . ولكن ذلك لا يدوم طويلا اذ ما تلبث أصوات الجسد أن تأخذ فى الهمهمة اليه باصرار أثناء صلواته وتأملاته . وتبدو فكرة التسليم فكرة لها جاذبيتها الخطرة . وتشغله فكرة تعرضه للاغراء ويشعر بالاذلال لأنه مازال معرضا للاغراء وليس حرا تماما مهما عاش عيشة مقدسة .

ثم تأتيه فكرة تكريس حياته لخدمة الدين من مدير الكلية ، وتغريه الفكرة ويفكر فى كل مزايا الكهنوت من مركز واحترام وقدرة على الحل والربط . ويتمثل نفسه القس ستيفن ديدالوس . وفى اللحظة التى يمد فيها يده لمصافحة القس يسمع نغمة هازلة صادرة من أربعة من الشبان يسيرون وقد تشابكت أذرعتهم وتمايلت رؤوسهم

تحدد سرعة خطوهم الأنغام الصادرة من الكونسرتينا التى يحملها قائدهم ·

« ومرت الموسيقى فى لحظة ، كما تمر عادة النغمات الأولى لموسيقى مفاجئة ، على الأنسجة الغريبة لعقله فتذيبها دون ألم أو صوت كما تذيب موجة مفاجئة قصور الرمال التى يبنيها الأطفال · وبابتسامة لتلك الموسيقى الخفيفة يرفع عينيه نحو وجه القس ، وحين يرى فيه انعكاسا لا مرح فيه لليوم الذى انقضى ، يخلص يده ببطء من يد القس بعد أن كانت قد استكانت لصحبته (ص ١٦٠)

ويدرك ستيفن أنه لم يخلق للكهنوت ، لتلك الحياة الجادة الرتيبة الخالية من الرغبة ـ وأن مصيره هو التعبير عن الحياة الاجتماعية الدنيوية ·

« ان كلمة «القس» لم تثر فيه أية حياة · كان مقدرا له أن يتعلم حكمته بعيدا عن الغير ، أو أن يتعلم حكمة الغير بنفسه وهو يتقلب بن دروب العالم » (ص ١٦٢)·

ويدرك أن تلك الدروب هى دروب الخطيئة · وانه سيسقط ، وسيقوم ويتعلم وينتصر · وتعد هذه اللحظة بداية أدراكه لمصيره ، تتبعها لحظات يذكر فيها أوربا ولغاتها وتراثها ويذكر سميه ديدالوس ، وفى الوقت الذى يأخذ الظلام الذى كان يحيط به فى الانحسار ويبزغ ضوء يكشف له الطريق ، يسمع زملاءه يسخرون منه ومن اسمه ، ولكنه يرى الطيور منطلقة بعيدا الى أعلى ويشعر وكأنه

يريد أن يصرخ صرخة الصقر فى طريقه الى أعلى ويعلم أن قدره هو الخلق « الخلق من حرية روحه وشفافيتها ... خلق شىء حى جديد منطلق جميل ، لا يمسك به ولا يفنى » . (ص ١٧٠).

وفى تلك اللحظة يرى فتاة تقف وسط نهر وحدها تنظر الى الماء ، ويثيره جمالها فتند عنه صرخة من الفرح الدنيوى ، تعتبر بمثابة قبول للنداء — نداء الفن والخلق .

ويستدير بعيدا عنها فجأة ، ويتجه نحو الطريق « كانت وجنتاه مشتعلتين وجسده ملتهبا ، وأطرافه مرتعشة . مشى الى الأمام والى الأمام والى الأمام بعيدا فوق الرمال ، وهو يغنى بوحشية للبحر ، وهو يصرخ محييا مقدم الحياة التى وجهت اليه النداء .

« لقد نفذت صورتها الى روحه الى الأبد ولم تقطع كلمة واحدة السكون المقدس لنشوته . لقد نادته عيونها وقفزت روحه للنداء . أن يعيش ، وأن يخطىء ، وأن يسقط ، وينتصر ، ويخلق الحياة من الحياة ! لقد ظهر له ملاك برى ، ملاك الشباب والجمال الانسى ، رسول من قصور الحياة الجميلة ، ليفتح له فى لحظة من النشوة أبواب جميع طرق الخطأ والمجد . قدما الى الأمام والى الأمام والى الأمام » (ص ١٧٢) .

وتعتبر هذه لحظة الرؤيا التى يختتم بها الفصل الرابع ، اللحظة التى كان يبحث عنها ستيفن . ومنذ هذه اللحظة تزداد عزلة ستيفن عن زملائه — لا يشارك فى

نشاطهم ـ ويرفض الاذعان لمطلب الأسرة أو الكنيسة ٠ ويأخذ فى تكوين نظرية جمالية له وينتهى به الأمر الى رفض الأسرة والكنيسة والوطن جميعا والهرب من جميع الشباك التى تحاك الى باريس حيث يأمل أن يجد الحرية ليمارس العمل الذى خلق له وهو الفن ٠ يعبر عن ذلك بقوله : « أيرلنـدا هى انثى الخنزير العجوز التى تأكل صغارها ٠٠٠ عندما تولد روح رجل فى هذا البلد ، ترمى شباكا عليها لتمسك بها عن الانطلاق ٠ الوطنيـة واللغة والدين ٠ سأحاول الانطلاق من هذه الشباك » (ص ٢٠٣)٠

وكان ستيفن قد عبر من قبل عن رفضه مراعـاة المراسم الدينية أرضاء لوالدته :

« لن أخدم ذلك الذى لم أعد أومن به ، سواء سمى بيتى أو وطنى أو كنيستى : وسأحاول التعبير عن ذاتى بشكل من أشكال الفن أو الحياة بأكبر قدر من الحرية ٠ أستطيع أن افعل ذلك وعلى أكمل وجه ، مستخدما للدفاع عن نفسى تلك الأسلحة فقط التى أسمح لنفسى باستخدامها وهى الصمت والنفى والدهاء » ٠

وعند نهاية الكتاب نجد ستيفن يخاطب ديدالوس الفنان المبدع وكأنه الابن ايكاروس الذى حاول تقليد والده فيرى نفسه تارة الأب وتارة الابن ٠

ويرى ستيفن الطيور المهاجرة رمزا للفنـان الذى يذهب بعيدا استعدادا لتحقيق مهمته المقدسة ٠

وهكذا نرى عملا دراميا من الدرجة الأولى يعتمد على الحدث والحركة للكشف عن النمو ، ويتسم بالموضوعية التى تضفى عليه بعدا وعمقا لم يتحققا لكثير من الأعمال المشابهة ·

كتب جولد برج يقول :

« لقد جعل جويس الحدث يتكلم معبرا عن معناه بطريقته الخاصة · فموافقة تلون الحدث ، ولكنها تشكله وتنظمه من الداخل حتى نرى مبرراته باحساسنا بالمنطق الذى تتكشف به أحداث الرواية · ان جويس يحقق هنا بعد النظر والقدرة التى تقوم عليها أروع الأعمال » (٣٤)·

ويتمثل فن جويس من بداية الصفحات الأولى للكتاب · وقد وصف جولد برج ذلك وصفا رائعا · يقول :

- « ان تجربة ستيفن الطفولية فى الحياة تتكون فى بادىء الأمر من جزئيات منفصلة لا يتوصل الى فهمها الا عندما يستطيع أن يربطها ويرتبها وبالقدر الذى يستطيع أن يفعل ذلك ، يستطيع بالضرورة تقييمها · فالأشياء الحقيقية والخيالية ، والأحداث والأحاسيس والكلمات والرغبات والمخاوف والممنوعات والتهديدات ، والمشاهد المحيرة المخيفة ، والارتباطات الذهنية ، تتجمع كلها بالنسبة للطفل فى أنماط تزداد تعقيدا · وبالقدر الذى تصبح به كذلك ، يصبح تمكنه من اللغة أكثر رسوخا اذ أنه عن طريق هذه الأنماط اللغوية التى تزداد تعقيدا —

العالم الخارجى كما يفهمه وفى نفس الوقت يعبر عن صورة فهمه هو ٠

والتمكن من اللغة كان فى الواقع بالنسبة لستيفن كما كان بالنسبة لجويس نفسه ، مظهرا خارجيا لجهود اكثر عمقا ٠ اذ عليه أن يصل الى نوع من التوازن بين حياته الداخلية برغباتها وآمالها ومخاوفها (القيم التى تشكل أمانيه وسلوكه) وبين العالم الخارجى بما فيه من برد ودفء ، وتهديدات ومرح ، وضغوط سياسية ودينية (الحقائق الصعبة التى تقاومه وترغمه دائما على أن يخضع حياته الداخلية لروح النظام ويشكل قيمه بطريقة اكثر موضوعية) ٠ عليه أن يصل الى نوع من التوازن بين الارتباط الضرورى بالعالم الخارجى والانفصال الضرورى عنه ٠ ان هذه هى الطريقة الوحيدة التى يستطيع بها أن يعرف ذاته ٠ بدقة بالنسبة لهذا العالم ٠ فالصبى الصغير الحائر الوحيد الخائف الذى يتلاعب به العالم الخارجى فى مدرسة كلونجويز وود والذى يحاول ان يكتب عنوانه فى عالم كبير ، أكبر من أن يلم به « خياله » يصبح فى النهاية الشاب الذى يذهب ليكتشف بنفسه « ما هو القلب وماذا يحس به » فى ضخامات الحياة التى لم يسبر بعد أغوارها ٠ ولكن ، بالرغم من أن الجهل والوحدة والخوف ما زالت باقية (مثل طبقة صخرية) فان الشاب يخشها الآن ، وبالقدر الذى يستطيع به أن يدرك أهميتها أو عدم أهميتها ، يمكنه أن

يسيطر عليها • أما الذى يتوصل الى ادراكه ببطء (لحد ما) فهو أن عليه أن يتجنب الانعزال البارد واللامبالاة بالآخرين الذى قد تدفعه اليه بسهولة مثاليته وذكاؤه ، وأن يتجنب أيضا بنفس القدر آثار الخضوع لقيم المجتمع السائدة التى تدفىء القلب ولكنها فى النهاية تأتى بنفس الآثار السيئة • ان مشكلته ومأساته عامة • وكلما مر عابرا من باب لاكتشاف الحقيقة الى آخر ، ينتقل من الخيالات والفعال الغريزية تقريبا ، الى أعمال الخيال والارادة المقصودة بعقلانية أكثر امتلاء وانسانية (١١) •

وهكذا نرى فى « صورة الفنان شابا » مثلا رائعا للتجديد والتجريب الناجحين •

---

(١١) S.L. Goldbegr, *Joyce*, p. 51 and 52.

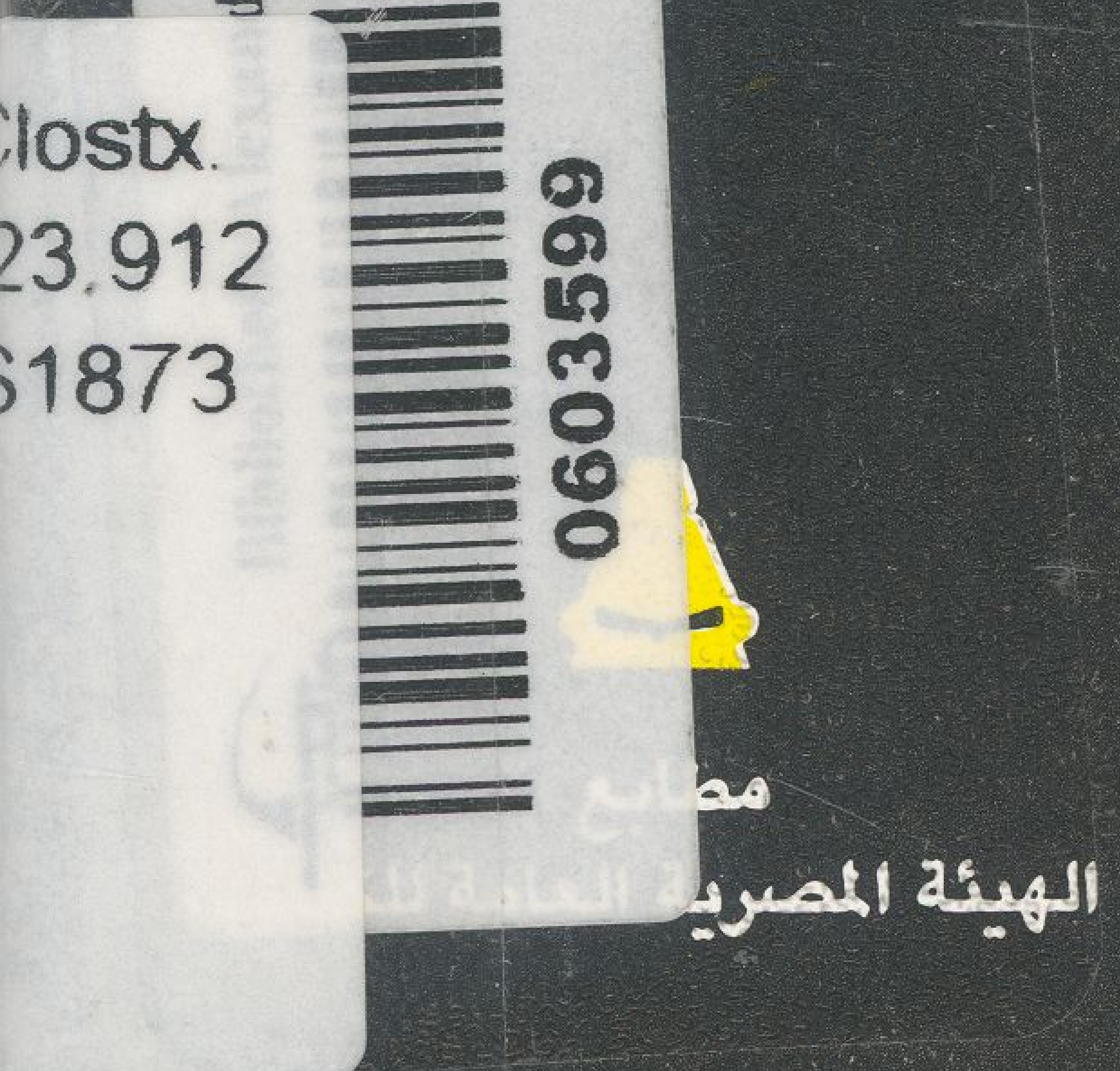
رقم الايداع بدار الكتب ٤٩٣٥ / ١٩٩٤

ISBN — 977 — 01 — 3812 — 6

مكتبة الأسرة



بسعر رمزى عشرة قروش
بمناسبة
مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٤



مطابع
الهيئة المصرية